## هوامش

ترمّم جمعيات صيانة المدن، بإشراف البلديات والمعهد الوطني لحماية التراث في تونس، قصوراً تمثّل الموروث القديم الذي يجلب السياح، ويحافظ على تاريخ المدن القديمة

لم تفقد القصور تفاصيلها رغم مرور زمن على تشييدها (العربي الجديد)

# قصور تونس

## متاحف ودور ثقافة في عمارات تراثية

تونس ـ **مريم الناصري**

**تتميّز المدن العتيقة في جميع محافظات تونس بالعمارة التراثية، والمعالم الدينية، وقصور البايات، والدور التي تنفرد بتصاميم وزخارف تختلف عن العمارة الحديثة. وفي المدينة العتيقة بالعاصمة تونس هناك دار الأصرم التي شيّدت في القرن التاسع عشر، ودار باش حامبة، ودار بن عبد الله، ودار الدولاتلي، وقصر ابن خلدون، ودار بودربالة، ومدرسة بئر الأحجار، وهي قصور تسمّى غالبيتها بدور، أي جمع دار التي تبنى في تونس بطريقة تختلف عن البيوت العصرية اليوم. وتتألف الدار في الغالب من غرف وقاعات جلوس، وتتضمن فسحة كبيرة في المنتصف. وتبنى كل غرف الدار بطريقة مشابهة، ويجري تزيين جدرانها بالسيراميك والجبز المنقوش، في حين تكون فسحتها ذات بلاط رخامي. وكانت غالبية الدور أملاكاً لعائلات حكمت تونس وأعيان البلاد. وبقيت هذه القصور مغلقة لسنوات، حين كان يكتفي المارة بمشاهدة أبوابها الضخمة وجدرانها ذات النقوش والزخارف التي لم تفقد تفاصيلها، رغم مرور زمن على تشييدها، ثم تحوّلت غالبيتها اليوم إلى دور للثقافة ومتاحف لعرض منتجات صناعية وتقليدية أو أعمال فنية.**

### دور الأعيان

بنى حمودة الأصرم، وهو عسكري من أعيان الحكم الحسيني، دار الأصرم التي تتميّز بالزخارف في كل جدرانها وأسقفها، وغالبيتها معالم مستوحاة من الأنماط الأندلسية والعثمانية. وأصبحت الدار اليوم مقراً لجمعية صيانة مدينة تونس ونادي الطاهر الحداد، وتحتضن حفلات موسيقية وسهرات شعرية في إطار تنشيط الحياة الثقافية للمدينة العتيقة. وتتميّز دار باش حامبة بسقف خشبي وزخارف على الجدران والأعمدة والتيجان، وتتضمن ساحة يغطيها الرخام مثل بقية دور الأعيان وقصور العائلات الحاكمة. وكان يسكن دار باش حامبة عائلة من أصول تركية، وأصبحت اليوم متحفاً ثقافياً لعرض الأزياء التقليدية التونسية والمنحوتات الطينية والصناعات الخزفية التي جرى جمعها من مختلف مناطق البحر الأبيض المتوسط. كما تُنظّم فيها ملتقيات ثقافية، على غرار معارض للوحات فنية وملتقيات شعر وأدب وندوات فكرية. وتوجد تلك القصور في المدينة العتيقة بالعاصمة تونس، وتشهد حركة كبيرة طوال السنة من قبل زوار المتاحف والسياح. وتوجد أيضاً دار بن عبد الله في باب الجزيرة بالعاصمة تونس. وهي تأسست في القرن الـ18 حين امتلكها الحاج محمد بن علي القسنطيني، ثم انتقلت الملكية إلي سليمان «كاهية»، وهو قائد عسكري في عهد حمودة باشا باي تزوج ابنة محمد باي الذي حكم من عام 1814 إلى عام 1824، وكلّف بقيادة الجيش النظامي. وبقيت «دار الكاهية» ملكاً لسليمان «كاهية» حتى عام 1875، وبيعت بالمزاد العلني بعد وفاته إلى أحد أعيان البلاد، وهو الطاهر بن صالح بن عبد الله الذي يحمل القصر اسمه حتى اليوم. وبعد الاستقلال تحوّلت الدار إلى مركز للفنون والتقاليد الشعبية، وتشهد زيارات يومية وتنظيم أمسيات شعرية ومعارض فنية.

### متحف باردو

وفيما يمثل المتحف الوطني بباردو أبرز المعالم القديمة في تونس، يُعتبر في الأساس قصراً قديماً للبايات شيّد في القرن التاسع عشر، ويضم أكبر مجموعة فسيفساء في العالم. وبعد عمليات تهيئة جزئية للمتحف، كي يتناسب مع ثراء المجموعات المعروضة، وتزايد عدد الزوار، انطلق مشروع تجديده وتطويره في ربيع 2009، بعدما وفّر البنك الدولي للإنشاء والتعمير حينها قرضاً بقيمة 30 مليون دينار. وأضيف جناح جديد بتصميم معماري معاصر خلف المعلم التاريخي الموجود، الذي خضع أيضاً إلى إعادة تهيئة. وهكذا تضاعفت مساحة المتحف، وبالتالي عدد المعروضات، وصولاً إلى 8000 قطعة أثرية وفنية. وأصبح يحافظ على مجموعات فنية ذات قيمة تاريخية. أيضاً لا يختلف قصر السعادة عن بقية القصور أيضاً في قيمته التاريخية، ويقع في مدينة المرسى، وبناه الناصر باي إكراماً لزوجته في عهد محمد باشا، ثم أصبح مقراً لإقامة الملوك والبايات. وهو جديد نسبياً مقارنة بباقي القصور العثمانية. وبعد الاستقلال أصبح قصر السعادة بالمرسى ملكاً للحكومة التونسية الوطنية، وسكن فيه في مرحلة أولى ولفترة قصيرة الزعيم الحبيب بورقيبة، بعد انتخابه أول رئيس للجمهورية التونسية في 25 يوليو/ تموز 1957، وذلك في انتظار انتهاء أشغال الترميم والتوسيع في قصر قرطاج. وبعدها أصبح مقراً لبلدية المرسى.

### حبيبة مسيكة

وفي مدينة تستور، بمحافظة باجة، يوجد قصر حبيبة مسيكة، الأكثر شهرة في المنطقة. وحبيبة مغنية وراقصة شهيرة في النصف الأول من القرن العشرين في تونس، وأدت العديد من الأدوار المسرحية في تونس وخارجها، وتميّزت بجمالها الباهر الذي أسر إلياهو ميموني أحد أكبر التجار في المنطقة. واستغلت حبيبة مسيكة حب ميموني لها، وطلبت منه أن يبني لها منزلاً في تستور باستخدام نوع معين من الرخام، كما فرضت أن يكون لكلّ غرفة نوع مختلف من السيراميك. ولبّى ميموني كل المطالب، لذا شيّد لحبيبة قصراً اختلف عن كلّ البيوت في منطقة تستور. وتحوّل اليوم إلى معلم مهم للزوار المحليين والسياح الذين يقصدونه لمشاهدة زخارف جدرانه وبلاطه الرخامي، والتفاصيل في كلّ غرفة. واللافت أن واجهة القصر بسيطة جداً، لكنه لا يختلف في رونقه وجماله عن أي قصر لأعيان البلاد في تلك الفترة. ويشير المؤرخ عبد الستار عمامو إلى أنّ المدينة العتيقة في العاصمة تونس تضم أكثر من 850 معلماً تاريخياً، تتوزع بين دينية ومدنية وعسكرية، إضافة إلى قصور البايات ودور أعيان البلاد. وتتميز غالبيتها بالطابع الأندلسي، خصوصاً تلك التي شيّدت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، في حين تتميّز العديد من القصور التي شيّدت في القرن التاسع عشر بطابعها الأندلسي والأوروبي.

**باختصار**

بقيت القصور مغلقة لسنوات حين كان يكتفي المارة بمشاهدة أبوابها الضخمة وجدرانها ذات النقوش والزخارف

■■■

يمثّل المتحف الوطني بباردو أبرز معالم تونس، وهو قصر للبايات شيّد في القرن التاسع عشر، ويضم أكبر مجموعة فسيفساء في العالم

■■■

تضم المدينة العتيقة في العاصمة أكثر من 850 معلماً تاريخياً تتوزع بين دينية ومدنية وعسكرية

## وأخيراً

# بشير الجميّل في منزل يوسف الخال

**معن البياري**

حدث في مثل هذا اليوم قبل 42 عاما، أن رئيساً للبنان كان قد انتخبه مجلس النواب (؟)، اسمُه بشير الجميّل، اغتيل في تفجير مدوٍّ، أياماً قبل موعد أدائه اليمين وتسلّمه سلطاته. ومعلومٌ أن هذا الشاب (قتل عن 35 عاما) كان زعيم واحدةٍ من أقوى مليشيات الحرب الأهلية، والذائع عنه قسوتُه ودمويّته ضد خصومه الكثر، وعلاقته بإسرائيل التي ساهمت جيّداً في تسليح قواته، وقد مثّل عنواناً لما سُمّيت الانعزالية اللبنانية اليمينية المسيحية، والتي واجهتها الحركة الوطنية اللبنانية بإسناد فلسطيني مسلح. وبسببٍ من هذا الأمر (وغيره)، سيّجَ صورة بشير الجميّل نفور لبناني وفلسطيني وعربي واسع منه، وهو الذي ما صار رئيساً إلا بالتغلّب، وبإخضاعه، بارتكابات مليشياوية عنيفة، تمثيلاتٍ لبنانيةً، يُشابهه بعضُها. على أن هذا لا يغيّب أن لبنانيين عديدين، وبينهم نخبٌ مثقفة، و«متطرّفة» في نزوعها إلى الحداثة والحريات والمدنيّة، ناصرت هذا الرجل، ورأت فيه خلاصاً ممكناً من فوضى الفلتان في لبنان، في غضون الحرب الأهلية خصوصاً. الشاعر اللبناني (سوري المولد)، يوسف الخال (1987) أحد رايات الحداثة الشعرية في المشرق العربي، وممن لم يروا التباساً بين أن يكونوا متيّمين ببشير الجميّل ودعاةً إلى الحرّيات الفردية والعامة. لم يكترث، وبعض نخبة لبنانية مثقفة (ضيّقة؟) من أهل الأدب والفن، في حينه، بما توسّله الزعيم المليشياوي، من عنفٍ لبلوغ أغراضه وتلبية طموحاته المطعّمة بالخطاب إياه عن لبنان قوي متفرّد. وغايةً في الأهمية، بشأن الرائد في قَصيدة النثر العربية، والذي أنشأ المجلة الطليعية «شعر»، أن نقرأ ما جاءت عليه زوجتُه (الثانية)، الشاعرة والرسّامة (السورية)، مها بيرقدار الخال، في كتاب مذكّراتها «حكايا العراء المرعب» (دار فواصل، دار مجلة شعر، بيروت، 2024)، عن الإعجاب الوفير فيه (وفيها هي الراوية أيضاً)، ببشير الذي زاره في بيته، واغتبط الشاعر بلا حدود يوم اختير هذا رئيساً، وبكى يوم اغتيل. وقد يتفهم واحدُنا ميلاً لدى صاحب «البئر المهجورة» إلى ما كان يُشهره الزعيم المسيحي الأقوى في لبنان، في غضون «حرب المجانين» (بتسمية الخال) الأهلية، عن لبنانٍ آخر يشتهيه، غير أن من العسير، ربما، أن يُتفهَّم صمتُه عن النزوع الدموي، والمخيف، لدى هذا المليشياوي، وإغماضه عينيْه عن تصفيات ارتكبها هذا الرجل في خصوم له، وذلك إذا ما استبعدْنا تحالفه الوثيق مع إسرائيل. إلا إذا وجدنا شيئاً من التفسير لهذا الأمر في قول مها بيرقدار عن زوجها إنه «شرسٌ وقاسٍ بعض الشيء»، وإنْ لا تُنكر طيبتَه. يحدّث يوسف الخال زوجته عن بشير إنه يحبّه أكثر من أولاده، ويخافُ عليه أكثر مما يخاف عليهم «لأنه أجمل وأكبر من أن يكون حقيقة!، لأنه جمع في شخصيّته الإقدام والإيمان والاندفاع، وعشق الوطن وطهارة اليد والنفس». ... يزور هذا حفل توقيع الخال كتابا له (بالعامية اللبنانية) في غاليري في بيروت، ويتسلّم نسخة موقعة.

وتكتب صاحبة المذكّرات «لا أعرف ماذا حلّ بي، لأني لم أتوقّع أن أراه وجها لوجه، استقلبته وقلبي يرتجف». وبعد أيام، يزور الشاعرَ في منزله. وهنا تكتب «يطلّ كالعادة بثيابه البسيطة التي هي أقرب إلى ملابس طالب جامعي، ولا من مرافقين يحمونه من عدو كامن». وتتزيّد «كان بشير محبّا للناس، وقريبا من كل فئات المجتمع، هناك إجماعٌ عليه من النساء والرجال والأطفال». ... وتسترسل عن إصابتها (عولجت في المستشفى أياما)، وهي متوجّهة إلى المطبعة، لتسليم كتاب مصوّر أعدّته عن بشير الجميل، في حادث اغتيال استهدف الأخير، وقتل فيه تسعة أشخاص، قبيل يوم ظلّل الفرح فيه منزل يوسف الخال، لمّا رأوا بشير على شاشة التلفزيون يرشّح نفسه رئيسا، فتقرّر أن يحتفلوا، الزوج وزوجته وصديقٌ لهما، بزجاجة شمبانيا في يوم التنصيب، غير أن هذا اليوم لم يأت، بل جاء يوم الاغتيال المشهود، «التفتُّ إلى يوسف (وبهيج)، فرأيتُهما ينشُجان بالبكاء كأي طفليْن يتيميْن»، ثم حطّمت زجاجة الشمبانيا المحتفظ بها.

> يحدّث يوسف الخال زوجته عن بشير إنه يحبّه أكثر من أولاده، ويخافُ عليه أكثر مما يخاف عليهم

حدث ذلك في مثل هذا اليوم في منزل يوسف الخال، في «ليلة تتويج بشير شهيداً»، هو ورفاقه قبل أن يكون رئيسا للبلاد التي أكلها الحزنُ والخوف والفقد، والفوضى العقلية الطائفية والفساد والاغتيالاتُ وسواد الثياب، وقتامة النظرة إلى الوجود بأكمله، وإلى الموت البطيء الجماعي في الروح والجسد» ... يا للهوْل، هل كان بشير الجميّل الوعد بنقل لبنان من هذا كله؟ تُرى، ماذا كنّا سنكتب اليوم لو لم يقتُل القاتل بشير الجميّل، وصار هذا رئيساً للبنان؟

**سعر النسخة**: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**